الإسلام والعلم

لقد كان العلم أهم ما جادت به
الحضارة العربية على العالم الحديث ،
ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .

الأستاذ بريفولت

obeikandl.com

obeikandl.com

الإسلام والعلم

ونأتي إلى العلم ، وما ورد عنه في الإسلام سواء في القرآن الكريم أو في السنة المطهرة ، ونحن ما زلنا حتى اليوم نسمع دندنة تقول : إن الدين الإسلامي والعلم على طرفي نقيض ، وإن العلم يؤدي للإلحاد ، والعلماء استطاعوا ـ بحسب زعم القائلين ـ إثبات أن الكون بما فيه لا يحتاج إلى خالق ولا إلى منظم أو مدبر له . . إلى آخر ما هنالك من هذه الترّهات التي أُلصقت بالعلم ، والعلم منها براء . إن ديننا الإسلامي إنما أتى ليعلم الناس ، ويهديهم الطريق السوي ، الذي لو ساروا فيه لن يضلّوا أبداً . . ما داموا متمسكن بالكتاب والسنة الصحيحة . . ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٢] .

والعلم لو سألنا عن بدايته في ديننا ، وعن مفتاحه الأول . لوجدنا أنه القراءة . . ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ .

هكذا كانت بداية الوحي ، بداية لثورة فكرية جديدة انطلقت من وسط الصحراء ، ودوّت عالية بصيحة العلم .

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ [العلق : ١ ـ ٣] .

فمن أراد العلم عليه بالقراءة ، والقراءة سيتبعها التأمل ، والتأمل

يدعو إلى الشك ، والشك هو امتحان العقل في طريقه إلى الحقيقة .

ثم إن ربط القراءة باسم الله أمر مهم ، فليس العلمُ للعلم ، وليست الثقافة لمجرد الثقافة ، بل لها أهدافها النبيلة ، وأغراضها السامية .

وهكذا بدأ نور الإسلام ، فهذه كانت الدعوة الأولى من الله عز وجل لعباده كي يسيروا على طريق العلم والمعرفة .

بدأت الدعوة بصرخة ، علم الله أنها ستمتد إلى أجيال وأجيال ، وتقود لبناء حضارة إسلامية صحيحة ، لا تقوم على سفك الدماء ، وانتهاك الحرمات ، وسلوك الطرق الملتوية .

علم عز وجل أن الإنسان عندما يتدبر هذه الآيات سيصل إلى تحقيق علم الله فيه ، عندما خالف الملائكة رداً على اعتراضهم لخلقه خليفة له في الأرض . . ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] (١) .

فتحقيق علم الله فينا ، لن يتأتى إلا بالتفكر والتدبر ، بالعلم ، بالقراءة .

فهذه الكلمة ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ هي التي دفعت ورقة بن نوفل ذات يوم مضى

---

(١) « يسفك الدماء » : يريقها عدواناً وظلماً . « نسبح بحمدك » : ننزهك عن كل سوء مُثْنين عليك . « نقدس لك » : نمجدك ، ونطهر ذِكْرك عما لا يليق بعظمتك .

إلى الإيمان بأن محمداً ﷺ هو النبي الحق المنتظر . . المرسل برسالة الإسلام .

وهذه الكلمة ﴿ٱقْرَأْ﴾ هي التي دفعت أحد قادة الحزب الشيوعي يوماً إلى الإيمان بالله وبرسوله . . دفعت روجيه غارودي إلى نبذ كل معتقداته السابقة التي كان يؤمن بها . . وهؤلاء من عهد ورقة بن نوفل وإلى اليوم ، وأيضاً حتى المستقبل القريب والبعيد ، ستكون هذه الكلمة الدافع لتكرار مثل هذه الحوادث في تاريخ العالم .

وكم نسمع اليوم من تحولات الناس نحو الإيمان بحقيقة الدعوة الإسلامية بعد البحث والتدبر !!

إن كلمة ﴿ٱقْرَأْ﴾ كانت دعوة آمرة موجهة إلى الثقافة ، إلى العلم ، إلى الفكر ، إلى البحث المستفيض في السماء ، وفي الأرض ، في الجبال ، وفي البحار ، في كل ما خلق الله تعالى من كائنات صغرت أم كَبُرت .

ولقد اتَّسم الإسلام منذ هذه الكلمة بالطابع العلمي . . ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه : ١١٤] (١) .

ولقد أصبحت هذه الآية إحدى شعارات المسلم الساعي لبناء المجتمع السوي ، فلا يكتفي برفع يديه للسماء والدعاء ، وإنما

---

(١) « أن يقضى إليك » : أن يُفْرَغ ويُتَمَّ إليك .

يخوض غمار الحياة ، يبحث في بطون الكتب ، في تاريخ الأمم وقصصهم ، عما يحقق له هذا الدعاء .

ولعل الله عز وجل أراد أن يشعرنا بأهمية العلم عندما أقسم بالقلم . . ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : ١] (١) .

فهذا تنويه من الله بفضل العلم ، وتوجيه واضح إلى مكانته التي أظهرها الله تعالى ، من خلال التفريق بين مرتبة العلماء وغيرهم . . ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر : ٩] (٢) بالتأكيد لا . . فالفرق بينهما كما بين الأعمى والبصير . . وشتان ما بينهما . . ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ [فاطر : ١٩] .

ولا يشترط هنا العمى المادي ، أي أن تكون حاسة البصر لديه مصابة ، فكم من المبصرين لا يعرفون نعمة البصر ، وحقها عليهم ، ويسيرون في هذه الدنيا يتخبطون يمنة ويسرة ، لا يدرون بأنفسهم أين يذهبون . . أو أين يصبحون .

وبالمقابل كم من أعمى البصر ، نافذ البصيرة ، رأيت له فكراً وقلباً ينير عشرات القلوب بما حباه الله من علم ومعرفة . . تعب من أجل تحصيلهما . . والإتيان بهما . . وأقر الإسلام حقيقة علمية

---

(١) « والقلم » : قسم بالقلم الذي يُكتب به . « وما يسطرون » : والذي يكتبونه بالقلم .

(٢) « هو قانت » : مطيع خاضع عابد لله تعالى . « آناء الليل » : ساعاته .

مهمة . . أظهرها الكثير من علمائنا هذه الأيام ، وفي كافة المجالات ، فالعلماء هم الذين يطّلعون على خفايا الأمور ، ويحسّون بإبداع الخالق عز وجل ، وحسن خلقه ، فهم من الراسخين في العلم ، وعلمهم هذا هو الذي أدى لإيمانهم ، وإيمانهم الحق ، وبالتالي فهم أشد خشية لله تعالى من غيرهم ، لما توطّد في نفوسهم من علم بخالقهم . . ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وهذه الخشية هي التي تدفع العالم لبذل كل ما بوسعه للنهوض بالأمة ، ولإنارة الطريق لها ، لكي تضع رجلها على أول الطريق إلى بناء الحضارة القويمة .

قال الإمام ابنُ كثير في تفسيره (٣/ ٦٧٨) : قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر : ٢٨] أي : إنما يخشاه حق خشيته العلماءُ العارفون به ؛ لأنه كلما كانت المعرفةُ للعظيم القدير العليم ، الموصوف بصفات الكمال ، المنعوت بالأسماء الحسنى ، كلما كانت المعرفة به أتم ، والعلم به أكمل ، كانت الخشيةُ له أعظم وأكثر .

ووضع الرسول ﷺ العلم في القمة حين دخل المسجد فوجد حلقتين إحداهما تعبد الله ، والأخرى تتذاكر بالعلم ، فجلس إلى أهل العلم وطلاّبه وقال : « **إنما بعثت معلماً** »[1] .

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٩) وابن عبد البر في « التمهيد » (٥/ ١١٨) .

وكان بحق المعلم والقائد .

والعلماء أصبحت مراتبهم عالية جداً ومشرّفة ، عندما جعلهم الرسول ﷺ ورثة الأنبياء فقال :

«وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر»[١] .

وكلمة الراحة هنا إنما هي كلمة نسبية ، فالاشتغال بالعلم طريق شاق وصعب ، ويحتاج للتضحية بالشيء الكثير ، وليس مفروشاً بالورود والرياحين ، وإن كان هو السبيل للرَّوح والرياحين ؛ وجنة النعيم ؛ لقوله ﷺ :

«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة»[٢] . وجعل طالب العلم بمرتبة المجاهد في سبيل الله . . فلو مات كتب له أجر شهيد .

والآن ، لو تدبرنا آيات القرآن الكريم لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى قد امتنّ علينا بأن سخر لنا الليل والنهار ، والشمس والقمر ، وسخر لنا الأرض والسماء ، وما بينهما .

والامتنان الإلهي بهذا معناه دعوة صريحة للمسلمين ، أن يستجيبوا للأمر والتوجيه الإلهي ﴿ اَقْرَأْ﴾ .

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١ و٢٦٤٢) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣) .
(٢) انظر تخريج الحديث السابق .

فيسخروا كل ذلك بالعلم والمعرفة ، ويمتلكوا الكون ، مستعملين الملاحظة والتجربة في نفع الإنسانية ، وفي إعمار هذه الأرض ، ولتحقيق علم الله فينا .

ولا بد أن نلاحظ أن العلم والمعرفة في الإسلام لا يقتصران على الجانب المادي ، لأن النظرة الإسلامية إلى العلم ، والتي تجسدت حديثاً ، أوسع بكثير وأعمق من النظرة الحديثة الأوربية التي تقصر العلم فقط على الجانب المادي . فالإسلام وضع أمور النفس البشرية أيضاً ضمن إطار علمي ، أمور القلب والروح والبصيرة ، بينما ما زال الآخرون منكرين لذلك . . فما من أحد يقنع أن قانون المجتمعات مرتبط ارتباطاً وثيقاً بقانون تغيير النفس . . أي إن المجتمع وتغيره تابع للنفس وتغيرها ، والمعادلة واضحة . . ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد : ١١] (١) .

ولكن هذه القناعة لمّا تتولد بعد لدى الآخرين . . لذلك نقول : إن العلم عندنا في الإسلام أوسع وأشمل ؛ لأن التسخير عندنا في المجال المادي والنفسي تبعٌ للعلم ، والتسخير عندنا غايته المسخِّر

---

(١) « معقبات » : ملائكة تعتقب في حفظه . « من أمر الله » : بأمره تعالى وبحفظه . « من وال » : من ناصر ، أو والدٍ يلي أمورهم .

المكوِّن : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم : ٤٢] .

فنحن لا نريد بتسخيرنا الكون مجرد التسخير ، ولكن حتى التسخير سيكون لنا عبادة .

« فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[١] .

فالسيطرة على الطبيعة إذاً ـ في الوضع الإسلامي الصحيح ـ هجرة إلى الله ورسوله . .[٢] والدراسة والتأمل في آيات الله عز وجل سواء في هذا الكون الرحيب ، أو في هذه النفس البشرية . . والدراسة المستفيضة المبنية على أسس علمية صحيحة ستكون هجرة إلى الله ورسوله .

ومن هذه الحقيقة ، وانطلاقاً من فهم المؤمنين لقيمة العلم وحقيقته وفروعه في القرآن ، نبغ المسلمون في العلوم كلها ، وتتبعوا أثر المعارف فترجموها ، حتى كان الخليفة المتوكل يعطي حنين بن إسحاق ـ أشهر المترجمين ـ وزن ما يترجمه ذهباً .

وترجم المسلمون العلوم واستوردوها من الخارج ، ولم يقتصروا على الترجمة ، بل تابعوا البحث والدراسة ، وزادوا في العلم حتى بزُّوا علماء الدنيا ، وتفوقوا على مؤلفي العلوم

---

(١) رواه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧) .

(٢) الإسلام والعقل ـ الإمام عبد الحليم محمود ـ ص٢١٤ .

وواضعيها ، وكان المسلمون خير حلقة لحفظ العلوم وتوسيعها بين القديم والحديث ، ومنهم أخذ علماء أوربة ، وتلقوا العلوم فزادوا فيها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه العلوم والمعارف في عصرنا الحديث .

ومما يشهد به فطاحل علماء الغرب المنصفون المتحررون ، وفي ظل فهم المسلمين لحقيقة العلم وطلبه ، خرج أبو بكر الرازي ليكون أول من عمل عملية إزالة الماء من العين .

وظهر ابن سينا الذي كانت تدرس جامعتا «اكسفورد وكمبردج» كتابه الطبي ـ القانون ـ. وغيرهما من مشاهير الأطباء كثيرون .

وفي ظل فهم القرآن والإسلام نبغ العرب ، فكانوا أول بناة المراصد الفلكية في العالم ، وأول صانعي التلسكوبات ، ونمت المباحث الروحية والنفسية والفلسفية ، ومن علمائها ابن سينا والغزالي وابن رشد والفارابي وابن مسكويه وغيرهم .

وفي ظل دولة الإسلام قامت فنون الهندسة المختلفة ، وحاول المسلمون الطيران في الفضاء ، وأولهم عباس بن فرناس .

كل هذه الحضارة والعلوم كان مبعثها الأول الإسلام ، الذي يأمر أهله باستعمال العقل والفكر في الاستدلال على وجود الله ، ودراسة أنفسهم ، ودراسة الظواهر الحيوية الطبيعية ، ليصلوا للقناعة بحقيقة وجود الإله ، وروعة خلقه وإبداعه . . ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ

﴿هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران : ١٩١] (١).

ولعل دراسة العلوم التي تتعلق بالإنسان نفسه وبخلقه هي من أبلغ الدلائل على كمال الخالق عز وجل ، فالقرآن الكريم أول من ذكر للإنسان أطوار تخلق الجنين ، قبل أن يعرفها أي عالم في الأرض ، واليوم فقط توضح للعلماء ما جاء به القرآن الكريم منذ مئات السنين . . ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون : ١٢ ـ ١٤] (٢).

والقرآن الكريم أول من تحدث عن انعدام الأكسجين ، وانخفاض كميته في الهواء كلما ارتفع الإنسان نحو الأعالي ، في زمن لم يكن المسلم فيه يحلم بأن يرتفع عن الأرض عشرات الأمتار . . ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام : ١٢٥] (٣) فكلمة يصعّد في السماء معناها : يجعل صدره ضيقاً

---

(١) « باطلاً » : عبثاً عارياً عن الحكمة . « فقنا عذاب النار » : فاحفظنا من عذابها .

(٢) « سلالة » : خلاصة مائية مكونة من الغذاء . « قرار مكين » : مستقر متمكن ، وهو الرحم . « علقة » : دماً متجمداً . « مضغة » : قطعة لحم قدر ما يُمْضَغ . « فتبارك الله » : فتعالى .

(٣) « حرجاً » : شديد الضيق . « يصعد في السماء » : يتكلف صعودها فلا يستطيعه .

حرجاً . وما أبلغه من تشبيه لحال من فقد الأكسجين ، وصعب عليه التنفس براحة .

وخاض القرآن الكريم كثيراً في مجال الفلك ، وعلم الفلك . ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠][1] .

وأول من أثبت أن الشمس تجري وتسير نحو نقطة معينة ستبلغها في النهاية ؛ هو القرآن الكريم ، هذا بعكس الاعتقاد الذي ظل سائداً حتى عهود قريبة بأن الشمس ثابتة لا تتحرك ، فأول من قال بحركة الشمس هو القرآن الكريم . . ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس : ٣٨] . فالشمس تسير ، والكواكب تدور حولها ، وتسير معها ، دون أن يختل نظامها هذا قيد شعرة ، فمن ذا الذي خلقها وأعطاها هذا النظام ؟! سبحانك ربي !!

وأول من أثبت كروية الأرض ، منذ مئات السنين ، قبل ماجلاّن وغيره . . القرآن الكريم . . ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ ﴾ ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ .

وغيرها من الآيات التي تخالف فكرة الأرض المنبسطة التي ظلت سائدة عهوداً طويلة ، وإلى اليوم في عصر العلم والفضاء ، ما زال في أمريكا جمعية لا تعتقد بكل هذا، وتسمي نفسها: جمعية الأرض المنبسطة !!

---

(١) « يسبحون » : يسيرون بانبساط ، أو يدورون .

وما أروعه من تعبير ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ ﴾ فيعطي للخيال حريته في هذا التصور البديع ، تكوير الليل على النهار .

ومن رغب بالاستزادة فليعد لتفسير وشرح هذه الآيات . . وتحدث القرآن عن دوران الأرض بأسلوب ساحر وجميل جداً . . ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٨٨] هذه هي الجبال ـ الرواسي ـ التي نحسبها جامدة راسخة ـ إنما هي تتحرك وتمر مر السحاب بسبب دوران الأرض .

وهذا غيض من فيض . . بعض الحقائق التي تحدانا الله عز وجل بها ، وتحدى قدرة العقل البشري على البحث عنها واكتشافها للوصول إلى الحق المبين . . ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

فبوساطة هذه العلوم والمعارف ، مدفوعين بالإيمان ، استطاع العرب المسلمون بناء حضارة إسلامية أهدت للعالم من علومها الشيء الكثير ، وكم نهل الآخرون من علمها ومعرفتها ، ثم يأتي اليوم بعضهم لينكروا فضل العرب المسلمين على الحضارة الغربية ، ولكن الله يأبى إلا أن يظهر الحق ، فيظهر لنا العلماء المنصفون المتحررون ليقولوا كلمة الحق .

فالمعروف أن المنهج العلمي الحديث في أوربة يرجع إلى ـ روجر بيكون ـ فهو الذي أذاعه ونشره في أرجاء أوربة .

ويتحدث الأستاذ بريفولت في كتابه ـ بناء الإنسانية ـ عن روجر بيكون فيقول : « إنه درس اللغة العربية والعلوم العربية في مدارس أُوكسفورد على خلفاء العرب في الأندلس ، وليس لروجر بيكون ولا لسميّه الذي جاء بعده ـ الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربة المسيحية ، وهو لم يَمَلَّ قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة ، والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هو طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية . وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر بيكون ، قد انتشر انتشاراً واسعاً ، وانكب الناس في لهفة على تحصيله في ربوع أوربة » .

ويقول الأستاذ بريفولت أيضاً :

« لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ، ولكن ثماره كان بطيئة النضج » .

« . . إن العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في إسبانيا ، لم تنهض في عنفوانها إلا بعد مضي وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوربة الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية » .

إذاً التفاعل بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية كان

واضحاً وجلياً ، وكان لنا فيما مضى أثر كبير على علوم أوربة ، أدى لتطويرها والتقدم بها ، ولا ينكر ذلك إلا مخادع أو متجاهل لغرض ما !!

ولذا يرد المفكر روجيه غارودي في سؤال عن تأثير الحضارة العربية الإسلامية في الحضارة الغربية قائلاً :

« أعتقد أن من أكبر الأخطاء التي ترتكب في محاولات التاريخ وفي كتب التاريخ الغربية ، هي اعتبار الغرب وحضارته نتاج إرث مزدوج يهودي ومسيحي يوناني أو روماني ، تجاهل الإرث الثالث وهو الإرث العربي الإسلامي ، وهذا يبدو أمراً مهماً جداً لعدة أسباب :

أولاً : لأن النهضة الأوربية لم تبدأ ـ على عكس ما يدرس ويشاع في القرن السادس عشر ـ في إيطالية ، بل إنها بدأت قبل ذلك بثلاثة قرون في إسبانيا بفضل انتشار وتأثير الجامعة الإسلامية في قرطبة ، وبفضل ترجمة المؤلفات العربية الإسلامية من قبل الأسقف ـ ريمون ـ « أسقف طليطلة » ، والتي سمحت بقيام النهضة الأولى والكبرى للغرب ، وهي المؤلفات المنقولة والمترجمة بشكل أساسي .

وبالطبع كانت المؤلفات العلمية هي الأساس وحتى القرن السادس عشر ، ثم أُعيد طبع ونشر المؤلفات الطبية في الغرب ، مثل كتب الرازي وابن سينا ، حتى إن تمثالي هذين الأخيرين ما زالا

موجودين حتى الآن في المدرج الكبير التابع لكلية الطب في باريس . وفي ميادين الطب ، وفي الرياضيات ، وفي الفلك والكيمياء ، وفي معظم المجالات والميادين معلومات مهمة تم نقلها وترجمتها .

ولكن هذا الإرث الثقافي والعلمي لم يؤخذ إلا جزئياً ، وللأسف أضاع الغرب الإرث العربي الإسلامي ، وإنه مما كان يميز العلم أو العلوم العربية الإسلامية خصوصاً ، أنها لم تكن تفصل بين البحث عن الأسباب والبحث عن النتائج ، أي : إنها لم تكن تحاول دراسة علاقة الأشياء مع بعْضها أو فيما بينها ، وبالتالي السوابق والنتائج والظواهر والقوانين ، لكنها كانت تدرس علاقة كل شيء بالله من خلال القرآن ، بسوره وآياته ، الذي يعطي لكل شيء معنى ، إلا أن الغرب والثقافة الغربية أضاعا هذه الناحية من الإرث العربي الإسلامي . . »[1] .

ولعلنا نسمع اليوم دعوة جديدة نسبياً ، تقول بأن العلم هو نقيض الدين ، وأن العالِم الحق لا شك سيصل إلى الإلحاد إن كان يقصد العلم حقاً ـ هذا بزعمهم ولا ندري من أين جاؤوا بهذه الأفكار .

قال مؤلف كتاب « الإيمان والحياة » (ص٢٧٩ ـ ٢٨٠) : إن العلم ليس خصماً للإيمان ، ولا ضداً له ، بل هو دليل يهدي إليه . وقد رأينا كثيراً من العلماء الراسخين المنصفين ، هداهم علمُهم إلى أن وراء هذا الكون قوة عليا تُدبِّره ، وتنظمه ، وترعى كل شيء فيه

(١) عن مقال نشرته مجلة الموقف ، آب ١٩٨٣ .

بميزان وحساب ومقدار ؛ ذلك أن العالم أقدر من غيره على استبانة ما في هذا الكون من ترابط وتناسق وإحكام ، يتجلى في كل خلية من خلايا حياته ، وفي كل ذرة من ذرات جماداته . في خلق السموات والأرض ، في اختلاف الليل والنهار ، في الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، فيما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، فيما بثَّ اللهُ في الأرض من الدواب والأحياء ، في تصريف الرياح ، في السحاب المسخَّر بين السماء والأرض .

ولا عجب أن قرأنا لكثير من علماء الكون شهادات ناصعة اعترفوا فيها بوجود الله ، وضرورة الدين ، وهي شهادات تقطعُ ألسنة الذين يريدون أن يتخذوا من العلم سلاحاً يحاربون به الدين .

ويرد روجيه جارودي على أولئك الذين يدّعون التناقض بين العلم والدين قائلاً :

« في الحضارة الإسلامية لم يحدث فصل بين الأشياء ، في الإسلام العلم متصل بالدين ، والعمل مرتبط بالإيمان ، والفلسفة مستوحاة من النبوة ، والنبوة متصلة بالعقل ، والأرض غير بعيدة عن السماء ، والسماء على اتصال بالأرض ، والتقدم الحضاري يسير صعداً نحو السماء . هذه الوحدانية في مفهوم الحضارة ومفهوم الجماعة يحتاج إليها عالم اليوم المجزأ في كل شيء ، وهذا ما جذبني نحو المفهوم الإسلامي للوجود . . . » .

وعلى هذا فالدين الإسلامي قد نبذ كل نوع من أنواع التجزئة ،

وسعى لإقامة مجتمع متكامل متلاحم ، لا يقبل التجزؤ ، لأن المجتمع عند تلاحمه لا تستطيع أقسى الظروف أن تقف عقبة في طريق تقدمه ، ولهذا نادى الإسلام بمجتمع لا يقبل التجزؤ ، وهذا ما صرح به روجيه غارودي في كتابه ـ الإسلام دين المستقبل ـ فقال :

« الإسلام هو تلك النظرة إلى الله والعالم والإنسان التي تفرض على العلوم والفنون وعلى كل إنسان وكل مجتمع فكرة بناء عالم إلهي وبشري في شكل لا يقبل التجزؤ ، ويتضمن البعدين الأعظمين : التسامي والأمة . . » .

« إن الإسلام هو دين وأمة وإيمان ونظام وحياة متكاملة ، وعلى المسلمين استيحاء روح الإسلام لتطبيقها على المرحلة الجديدة بالشكل المناسب الذي يلائمها . . . » .

وربما تكون نظرة هذا المفكر ـ روجيه غارودي ـ وآراؤه أكثر عمقاً من غيرها ، لأنه كان ملتزماً بنظام وعقيدة تختلف اختلافاً جذرياً مع الإسلام ومبادئه .

ولكن بعد دراسة وتفكر استطاع الوصول إلى الحقيقة ، واستطاع أن يصل إلى الحياة الهادئة بعد فترة من الاضطراب والتنازع بين أفكار شتى ، متنازعة فيما بينها ، تتصف بالتباين والاختلاف الشديد .

وهذا الأسلوب في البحث والتفكير هو ما نحتاجه اليوم ، في كل أمور حياتنا ، لكي نصل دوماً إلى الأسس السليمة والصحيحة في

أسلوب الحياة الصحيح ؛ الذي يؤدي لبناء المجتمع القويم .

والآن . . إذا كان الإسلام هو وراء الحضارة التي سادت العالم فيما مضى ، وإذا كان الإسلام هو الذي أنشأ هذا المنهج وهذا العلم ـ كما ثبت ـ فمن الطبيعي أن لا يتعارض معه . . فنعود إذاً لما بدأناه .

إن مسألة التعارض بين الدين والعلم ، إنما هي مسألة وهمية ، إذا نظرنا إليها من زاوية صحيحة ، فهي موجودة فقط في الخيال لا في حقيقة الأمر .

وذلك أن العلم الحالي دائرته المادة والحس ، أما الدين فدائرته بالإضافة للمادة والحس ، ما وراء الطبيعة ، والخير والفضيلة ، فهما لا يلتقيان في مواضيع متناقضة ، فكيف يتعارضان . . . ؟!

أي : إن الدين الذي تحدث عن المادة والحس لم يحصل أن ورد تعارض في هذا بينه وبين العلم أبداً ، بل على العكس فإن كل ما يأتي به العلم الحديث إنما هو مصداق صدق رسالة الرسول ﷺ . . والكثير من المكتشفات ـ كما مر معنا ـ إنما هي معروفة قبل اكتشاف العلم لها بفترة زمنية طويلة .

أما التعارض إن كان موجوداً فهو في أمور الأخلاق والفضيلة وسيرد هذا لاحقاً .

إذاً لا يتأتى ، ولن يتأتى أن يقف الإسلام عقبة في سبيل العلم ، وأن يتعارض الإسلام مع العلم الحديث . . إن مشكلة التعارض بين

الدين والعلم ، إنما نشأت في أوربة بعيدة عن الجو الإسلامي ، إنها تصور نزاعاً في بيئة بعيدة كل البعد عن الروح الإسلامية التي حثت الإنسانية على التعليم ، والتي ولد المنهج العلمي الذي يسمونه المنهج الحديث بين ربوعها ، والتي أنشأت على أساس هذا المنهج حضارة ضخمة لا نزال نكشف كل يوم الكثير من أنحائها العميقة .

إن ديناً كانت أول كلمة فيه ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ هو دينُ العلم ، والمعرفة ، والدعوة إلى الأخذ بناصية الثقافة ، وبناء أسس المجتمع والأمة على هدى العلم ، وتشكيل الحياة وفق ركائز البحث العلمي .

ويجب أن ننتبه إلى أن ملاحدة العصر الحديث ، يتوهمون مشاكل لا أساس لها ، ثم يضعونها على بساط البحث ، ويتناقشون فيها ويتجادلون . وعلى مر الزمان يضفي الإلف عليها ، وهي وهمية ، صورة من ظلال الحقائق ، فيظن بعض الناس أنها مشاكل جديرة بالبحث والنظر . . . فيؤدي هذا إلى تشويش الفكر السليم ، وإعمال العقول في أمور متوهمة بأصلها . . ومن هذه الأمور مسألة التعارض بين العلم والدين ، مع أنه لا اتحاد في موضوعيهما يدعو لمثل هذا التعارض المزعوم .

ونحب أن نلفت نظر الإخوة إلى أن دائرة العلم في الإسلام أوسع منها في أوربة ، التي اقتصرت ـ كما بيّنا ـ على العلم المادي ، بينما الإسلام إضافة له فقد وجه الإنسانية إلى مصدر آخر للعلم والمعرفة ألا وهو : القلب أو الروح والبصيرة .

إن الإسلام يوجه الإنسانية إلى المعرفة الإشراقية ، أو الكشفية ،

أو الإلهامية . . . »[١] .

ويجمع الإسلام الاتجاه العلمي الحديث إلى الاتجاه البصري في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

فالسمع والبصر هما أساس العلم المادي ـ أي علوم الغرب ـ علم التجربة والملاحظة . . أما القلب ـ وهو ما يمتاز الدين باحتوائه إضافة للعلم المادي ـ فهو أساس العلم الإلهامي ، إن الله سبحانه وتعالى يوجه المسلم إلى الملاحظة والتجربة ، ويوجهه أيضاً إلى الاستشراف للهداية والنور القلبي ، عن طريق الخلق الكريم ، والتقوى ، والإخلاص ، وحب الإنسانية ، والمعاونة في الخير .

إذاً يمكننا القول أن العلم المادي إنما هو جزء من علوم الدين ، أي هو محتوى ضمن علوم الدين ، فأنّى له أن يتعارض معه .

ويشير الإمام عبد الحليم محمود إلى إنه إذا كان الإسلام أوسع نظرة في الجانب العلمي عن الحضارة الحديثة ، وأدق وأشمل ، فإنه يختلف معها اختلافاً جذرياً في مسألة الإرادات والنوايا ، وفي أمر البواعث والأسباب ، وفي اتجاه الغايات والأهداف .

فالحضارة الحديثة تقول : العلم لا صلة له بالأخلاق ؟ أو العلم لا أخلاقي ، والعلم في نظرها لا شأن له بالخير والشر ، ولكن الإسلام يجعل أسس العلم متسمة بالخير ، ويجعل منه عبادة لله ومن هنا كانت حضارة الإسلام حضارة رحمة وهداية ، لا حضارة تدمير

---

(١) الإسلام والعقل ـ الإمام عبد الحليم محمود ـ صفحة ٢١٦ .

وتخريب . . ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

تلك حقيقة الدين الإسلامي ، سواء نظرنا إلى أساسه أو نظرنا إلى غايته .

إن الغرب خطا خطوات واسعة ومؤثرة في ميادين العلم المختلفة ، لكنه في كثيرٍ منها ابتعد عن الجانب الأخلاقي ، وإلا كيف يُفسِّر المتأمل اختراع القنبلة النووية التي دمرت الكثير من اليابان . وكيف نُفسِّر احتلال الغرب لبعض الدول وإجراء تجارب الأسلحة فيها ، من القنابل العنقودية ، والمحرقة ، والصواريخ الذكية ، وكثير عن ذلك ، بينما شعوبٌ عديدة تئنُّ تحت وطأة الجوع والفقر والمرض .

إن الاحتكارات الغربية ، وصيانة مصالحه التخريبية ، قاد أولئك ليفصلوا بين التقدم العلمي والأخلاق ، فالمهم هو تحقيق مآربهم ، ولو على حساب المضطهدين .

وأخيراً ليس لنا إلا قوله تعالى . . . ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

فندعو . . . ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] .

* * *